كتاب تهذيب اللغة

« الازهري »

ان جمع كلمات اللغة العربية وتدوين مفرداتها مرّ في ادوار اربعة اصلية :

(الدور الاول) — تدوينها كيفما اتفق من دون مراعاة شيء من الترتيب : فكان الاستاذ يملي على الطلاب ابياتاً من شعر العرب . او امثالاً مأثورة عنهم . ويشرح لهم ما فيها من الغريب . وقد تذهب به المناسبة احياناً الى ذكر آية او حديث او مسألة نحوية او اشياء من اخبار العرب وحروبهم وانسابهم وخرافاتهم . فاذا اراد الطالب معرفة معنى كلمة مما علّمه استاذه رجع الى هذه الأمالي المحفوظة لديه . وكان الطلاب يقاسون في البحث عنها عناء وصعوبة شعر بهـا الخليل بن احمد الفراهيدي (المتوفى ١٨٠هـ) فرحمهم . وانتقل بهم الى الدور الثاني والف لهم كتاب العين .

(الدور الثاني) — تدوين مفردات اللغة بحسب الحروف الهجائية لكن لاباعتبار ترتيبها المعهود الذي يبتديء بالهمزة وينتهي بالياء بل باعتبار مخارج النطق بها في الفم وهي بهذا الاعتبار اربعة اقسام : حروف مخرجها الحلق . وحروف مخرجها اللسان . وحروف مخرجها الاسنان . وحروف مخرجها الشفة . فبدأ الخليل في معجمه المسمى بكتاب العين بالقسم الاول وقدم حرف العين . ثم بالقسم الثاني ثم بالقسم الثالث ثم بالقسم الرابع . ومع هذا بقي في مراجعة مفردات اللغة صعوبة لان كل انسان لا يقدر ان يميز بين مخارج الحروف فمست الحاجة الى طريقة أيسر وأسهل .

(الدور الثالث) — تدوين مفردات اللغة على حروف الهجاء باعتبار ترتيبها المعهود في (الف باء) والمحفوظ على ألسنة الاطفال لكن لاباعتبار أوائلها بل باعتبار أواخرها : فتقدّم الكلمات التي اواخرها همزات ثم باآت الى الياآت : فتذكر (جاء) مثلاً في باب الهمزة فصل الجيم . و (شاء) باب الهمزة فصل الشين و (ضرب) باب الباء فصل الضاد وهكذا . وبقي في الامر بعض الصعوبة زالت في الدور الرابع .

(الدور الرابع) — تدوين الكلمات على حروف الهجاء باعتبار اوائلها فتذكر

المفردات التي أولها همزة ثم باء ثم تاء وهكذا الى الياء . وهذه الطريقة هي اسهل الطرائق وسيكون عليها المعول في كل ما يؤلف بعد اليوم من معاجم اللغة كما هو الحال عند الافرنج .

على ان اللغة العربية ما زالت محتاجة الى (دور خامس) في تأليف المعاجم وهو

اولاً : ان تذكر فيها مفردات اللغة مرتبة في ابوابها بحسب اوائل صيغتها الصرفية لا بحسب اوائل مادتها اللغوية كما هو ترتيب معاجمنا اليوم : فتذكر (نبر) في باب النون اما (منبر) ففي باب الميم و (أنبار) في باب الهمزة . وتذكر (لعب) في باب اللام اما (ألعوبة) ففي باب الهمزة و (ملعب) في باب الميم . وتذكر (عض) في باب العين اما (تعضوض) وهو ضرب من التمر ففي باب التاء وبهذه الصورة تسهل المراجعة ، ويختصر الوقت . وليس كل احد من الناس الذين يراجعون في المعاجم يعرفون علم الصرف والاشتقاق .

ثانياً : ان يضاف الى المعاجم صور الاشياء ورسومها . ومصورات البلدان واطالسها : فيرى المراجع معاني كلمات اللغة ماثلة تحت نظره كما يتبين ابعاد البلدان . ومواقع بعضها من بعض .

ثالثاً : ان لا يكتفى فيها بذكر اسم الشيء وانه نبات اوحيوان بل يوصف بما يميزه عن مشاركه في الجنس والنوع بعض التمييز .

رابعاً : ان يذكر فيها ايضاً الكلمات المعرّبة والمولّدة والاساليب الانشائية الدخيلة . وغير ذلك مما نرى امثلته في المعجم الفرنسوي المسمى (لاروس) .

وما زالت كتب اللغة التي أُلفت في الدورين الاولين محجوبة عنا لا اثر لها في المكاتب . او هي مخبوءة في مكاتب اوربا والاستانة ومصر ، واشهر هذه الكتب (كتاب العين) للخليل . و (الجمهرة) لابن دريد . (والبارع) للفضل . و (تهذيب اللغة) للازهري . و (المجمل) لابن فارس . و (المحكم) لابن سيده وطالما تشوّفت نفوس عشاق اللغة والادب الى هذه الكتب . وتمنوا لو نشرت بين المتكلمين بالضاد . لا سيما في هذا الزمن الذي اشتدت فيه الحاجة الى انعاش لغتنا العربية واحياء ما درس من آثارها . فيساعد ذلك على تنمية كلماتها وأساليبها . وتوسيع دائرة التخاطب بها . فتثبت قدمها في هذا المعترك الهائل الذي تتزاحم فيه لغات العالم على الحياة والبقاء .

وكم كانت دهشتنا عظيمة مذ ألقى بريد اوربا الى مجمعنا العلمي العدد الاخير من مجلة (العالم الشرقي *Le monde oriental*) للمستشرق الاسوجي زترستين (*K. V. Zetterstéen*) . وهي تطبع في (أبسالا) احدى امهات مدن اسوج . فرأينا فيه قسماً من كتاب (تهذيب اللغة) للامام الازهري بنصه العربي ، وقد افتتحه ناشره المشار اليه بمقدمة باللغة الالمانية قال فيها ماخلاصته : « انه منذ سنة ١٩٠٤م اخذ يفكر فيما اذا كان من الممكن نشر كتاب التهذيب للازهري ؟ وفيما اذا كان يرجى من وراء نشره فائدة ؟ و بعد بضع سنين تمكن بواسطة الدكتور ريشر (*Dr. Rescher*) المقيم في الاستانة من ان يحصل على فوتوغرافية الاوراق الاولى من ذلك الكتاب الموجود في مكتبة اياصوفيا برقم (٤٦٧١) . وقد كتب اليه الدكتور يقول : ان ذلك الجزء الذي اخذ عنه الاوراق المذكورة مجلد ضخم رقيق القراطيس ، نسخي الحروف ، واضح الخط ، بعض اشعاره ذات شكل و بعضها غير مشكل . وقال ان الكتاب لا يخلو من اغلاط . وقد كتب بتاريخ ٣ جمادى الاولى سنة ١١٣٩ هـ الموافق ٢٧ كانون اول سنة ١٧٢٦ م) . قال وان هذا المجلد مفتتح بفهرست مسهب لأجل مراجعة كلماته اللغوية رتبه (محمد عصمت بن ابراهيم) بارشاد « العالم الامير الكبير ، الفاضل ابن الوزير ، الدفتري الشهير ، بعزت عليمير » وذلك سنة (١١٤٢ هـ) انتهى

ثم ان ما نشر في تلك المجلة الاسوجية من كتاب (تهذيب الازهري) يبلغ نحو مئة صفحة . وفي ذيول الصفحات هوامش وتعاليق باللغة الالمانية تصحح بعض اغلاط الكتاب الثابتة في الاصل . او تكمل بعض القطع الشعرية التي اقتصر منها على بعضها . او تنبه على اختلاف النسخ . في نظير ذلك من الفوائد .

والازهري مؤلف الكتاب هو ابو منصور محمد بن احمد بن الازهر الهروي توفي سنة ٣٧١ هـ عن نحو تسعين سنة . وهو احد ائمة اللغة المشهورين المتفق على فضلهم ودرايتهم والثقة بهم . وقد اخذ عن كثيرين : أشهرهم ابراهيم بن عرفة الملقب بنفطويه . وكان الازهري طاف جزيرة العرب لاخذ اللغة عن اهلها ، والسبب في هذا الطواف ان القرامطة اعترضوا ركب الحجاج سنة (٣١١ هـ) فقتلوا بعضهم واسترقوا بعضهم . وكان ممن استرقوه الامام الازهري وعمره يومئذ ٢٣ سنة . وقد

حكى ذلك عن نفسه في مقدمة الكتاب فقال : « لما وقعت في اسار القرامطة بالهبير كان النفر الذين وقعت في سهمهم عربًا عامتهم من هوازن . واختلط بهم أصرام من تميم واسد نشأوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث ايام النجع . ويرجعون الى أعداد المياه في محاضرهم رمن القيظ . ويرعون النعم ويعيشون بالبانها . ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها . ولا يكاد يقع في منطقهم لحن ولا خطأ فاحش . فبقيت في اسارهم دهراً طويلاً . وكنا نشتي الدهناء . وتتربع الصمان . وننقيظ الستارين . واستفدت من مخاطباتهم . ومحاورة بعضهم بعضًا ألفاظًا جمة . ونوادر كثيرة . أوقعتُ اكثرها مواقعها من هذا الكتاب (يعني تهذيب اللغة) وستراها في مواضعها اذا اتت قراءتك عليها ان شاء الله) اه

وكتاب (التهذيب) من الكتب المختارة في اللغة يقع في اكثر من عشر مجلدات قاله ابن خلكان . وقد جرى في ترتيبه على ترتيب (كتاب العين) اي بحسب مخارج الحروف . وصدره بمقدمة أورد فيها اسماء ائمة اللغة ورواتها حسب طبقاتهم . مع خلاصة تراجمهم . والقدح في بعضهم . ومن كتاب التهذيب نسخة خطية في مكتبة أياصوفيا وهي النسخة التي أخذ عنها القسم المنشور في المجلة الاسوجية . ونسخ اخرى في مكتبة نور عثمانية وكوبرلي في الاستانة ايضًا . ونسخة في المكتبة الاحمدية بحلب . وفي المكتبة السلطانية بمصر جزءان كبيران يتضمنان نحو الفي صفحة ينتهي الثاني بمادة (ذرا) ذكر ذلك جرجي زيدان في كتابه تاريخ الآداب العربية .

اما القسم الذي ارسل الينا فيبتدئ بالعين والحاء وينتهي بمادة (ثع) وأوله هكذا بعد التسمية (الحمد لله بكل ما حمد به اقرب عباده اليه الخ) و بعد ان أكمل مقدمته في بيان طبقات أئمة اللغة الذين اعتمد عليهم في كتابه قال : (وقد سميت كتابي هذا تهذيب اللغة لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أخلّ في لغات العرب من الالفاظ التي ازالها الاغبياء عن صيغتها . وغيّرها الغُتم عن سَنَنها (والغتم جمع أغتم وهو من لا يفصح شيئًا) فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي . ولم احرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم اعرف اصله . والغريب الذي لم يسنده الثقات الى الغريب اه)

فمثال ما هذبه وردّه عليهم من الخطأ قولهم ان العرب ربما سموا الشيء باسم غيره اذا كان معه او من سببه : فالعقيقة أصلها شعر رأس الطفل حين يولد ثم سموا الشاة التي تذبح عنه عقيقة لما ذُكر . فرد المؤلف هذا فقال : اصل معنى (العق) الشق والقطع وسميت الشاة التي تذبح عن الطفل عقيقة لانه يعق اي يشق حلقومها ووداجاها .

وقال في حديث واثلة «انه (ص) ثرد ثريدة ثم شعشها ثم لبقها ثم صعبنها » (لبّقها ليّنها وصعبنها جمع وسطها وقور رأسها) واما قوله (شعشعها) فقال بعضهم معناه خلط بعضها ببعض كما يُشعشَع الشراب بالماء . وقال آخرون معنى شعشعها رفع رأسها وطوّله من (الشعشاع) وهو الطويل من الناس . قال المؤلف : ورواه ابوعبيدة وابن الأعرابي (ثم سغسغها) اي روّاها دسماً .

وقال ايضاً : قال بعضهم (رجل مذعذع) اذا كان دعياً . فقال المؤلف لم يصح لي هذا الحرف من جهة من يوثق به . والمعروف بهذا المعنى (مدغدع) بالدال المهملة والغين المعجمة .

ومن فوائد هذا القسم الذي وقع الينا من ذلك الكتاب ان من معاني (العقيقة) سبب الاعتذار وقد سأل المبرد ابن الاعرابي عن معناه فقال : قالت الاعراب : ان أصل هذا ان يقتل رجل من القبيلة فيطالب القاتل بدمه فيجتمع جماعة من الرؤساء الى اولياء القتيل و يعرضون عليهم الدية و يسألونهم العفو عن الدم قالت الاعراب فان كان وليه قوياً حمياً ابى اخذ الدية وان كان ضعيفاً شاور اهل قبيلته فيقولون للطالبين ان بيننا وبين خالقنا علامة للامر والنهي قال فيقول الآخرون : ماعلامتكم ؟ فيقولون نأخذ سهماً فنركبه على قوس ثم نرمي به نحو السماء فان رجع الينا ملطخاً بالدم فقد نهينا عن اخذ الدية وان رجع الينا كما صعد فقد أمرنا باخذ الدية قال فما يرجع هذا السهم الا نقياً من الدم ولكن لهم بهذا عذر عند جهالهم .

ومن فوائده ان من علامة الصلح عند الاعراب مسح لحاهم وقد قال شاعر من اهل قتيل كان غائباً عند الصلح على دمه « ياليتني في القوم اذ مسحوا اللحى »

ومنها : قال ابو حاتم فيما ألف من الاضداد زعم بعض شيوخنا انه يقال للفرس الحامل عقوق (ومنه المثل اعز من الابلق العقوق) قال ويقال للحائل ايضاً عقوق

قال ابو حاتم واظن هذا على التفاؤل (يعني لا من التسمية بالضد)

ومنها : ان الجبل الذي بمكة انما سمي قُعيقِعان لأن قبيلتين من قريش اقتتلتا عنده فسمي به لقعقعة السلاح فيه ، لكن روي عن السدي انه قال سمي به لأن جرهماً كانت تجعل فيه قسيها وجعابها ودرقها فكانت تقعقع وتصوت (يعني ان الجبل كان بمثابة مستودع سلاح في زمن قبيلة جرهم التي كانت تسكن وادي مكة قديماً ثم انقرضت)

ومنها : قال ابو القمقام الاعرابي غبت غيبة عن اهلي فقدِمت فقدّمت الى امرأتي عُكّتين من سمن فقالت حلّني أكسني فقلت :

تسلأُ كل حرة نحيين وانما سلأت عكتين
ثم تقولي اشترِ لي قرطين

وزاد عليها في لسان العرب قوله :

قرطك الله على الاذنين عقاربًا تمشي وأرقمين

و (السلأ) تذويب السمن وتصفيته من الشوائب « ويظهر من قوله (وانما سلأت عكتين) ان سمن العكك يكون أجود من سمن النحّى عادةً وانما قلنا هذا ليصح امتنانه عليها بالعكتين »

ومنها : قال ابو عبيد عن الاحمر (العِضّ) من الرجال الداهي المنكر قال القطامي :

أحاديث من انباء عاد وجرهم يثوّرها العضان: زيدٌ ودَغفل

(زيد) هو النميري و (دغفل) هو النسابة المشهور . ووصفهما بكونهما عضّين لانهما كانا عالمي العرب بانسابها وايامها وحكمها ومعنى (يثورها) يبحث عن معانيها ومنه ما ورد « من أراد العلم فليثوّر القرآن » و« غلق عضّ » لا يكاد ينفتح . وان فلاناً لعِضاض عيش اي صبور على الشدة . والتعضوض تمر اسود شديد الحلاوة « سمي بذلك لأنه يعض على الحنكين وقت المضغ لشدته » وقال المؤلف : وقد أكلت التعضوض البرْنيّ وما علمتني أكلت تمراً أحمت حلاوة منه . ومنبته هجر وقراها . « البرنيّ من أجود انواع التمر . وأحمت حلاوة اي اشد حلاوة » .

ومن فوائده : « العسوس » من الرجال الذين يقل خيره و « العسوس » من النساء التي لا تبالي ان تدنو من الرجال . و « العُسس » التجار البرَصاء .

ومنها : « تسعسع » الرجل هرم وولّى وفني الا اقله . وأنشد رؤبة .

قالت وما تألو به أن يسمعا يا هند ما أسرعَ ما تسعسعا

« ما تألو به الخ اي مافصرت في ان تسمعه » والمعنى ان تلك المرأة قالت لصاحبتها على مسمع من رؤبة : قد شاخ رؤبة وكبر واسرع اليه الهرم والفناء . وقريب منه قولهم : « تسعسع عمر » يعنون انه اضطرب من الكبر وتغير الى الفساد وانشد عمرو بن شاس :

وما زال يزجى حب ليلى أمامه وليدين حتى عمره قد تسعسعا

ومن فوائده : انه قرئ « ليخرُجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ » على ان الفعل ثلاثي و« الاذل » حال من الاعز ، فيكون أدخل الالف واللام على الحال والمعنى ليخرُجنّ العزيز منها ذليلاً .

ومنها : « العطعطة » صياح المجّان وقال الليث هي حكاية صوت المجّان اذا قالوا : عيط عيط عند الغلبة فيقال هم يعطعطون « والمجان جمع ماجن الشبان يجتمعون للهزل واللهو والضحك فاذا قال احدهم قولاً اوفعل شيئاً مضحكاً صرخوا من كل جانب ضاحكين بعضهم على بعض عيط عيط فهذه هي العطعطة »

ومنها : « الحسب العدُّ » القديم و « العِدُّ » في أصل معناه البئر ذات المياه التي لا ينقطع مددها او هي القديمة من الركايا قاله ابو عبيدة وانشد :

فوردت عداً من الاعداد أقدم من عاد وقوم عاد

ومنها : يقال « انقضت عدّةُ الرجل » اذا انقضى اجله « يعني مات ، اما عدة المرأة فهي أيام اقرائها وايام حدادها على زوجها » .

ومنها : يروى الحديث هكذا : « ما زالت أكلة خيبر تُعادُّني فهذا أوان انقطاع أبْهَري » قال الاصمعي « تعادُّني » من العِداد وهو الشيء الذي يأتي لوقت معين مثل الحمى الربع والغبّ . وكذلك السم الذي يقتل لوقت معين . فمعنى قوله « ص » تعادُّني تراجعني بألم السم في اوقات معلومة « والرواية المشهورة تعاودني بالواو من العود » . وقال ابن السكيت : اذا كان لأهل الميت يوم اوليلة يجتمع فيه النساء للنياحة عليه فهو عِداد لهم وقال ابو عمرو : يقال به عِداد من اللمم وهو شبه الجنون يأخذ الانسان في اوقات معلومة .

انتهى ما رأينا تعليقه على هذا القسم من كتاب التهذيب للازهري وربما علقنا شيئاً على الاقسام الاخرى متى وقعت الينا ان شاء الله تعالى .

المغربي